

ثانياً : نظرات في الروايات

بالنظر في الروايات السابقة ، نجد ما يلي :

١- الهدف من نزول القرآن على سبعة أحرف :

عندما نقرأ روايات الحديث السابقة وغيرها ، نجدها - جميعاً - تهدف إلى مبدأ التيسير والتخفيف والتسهيل على الأمة الإسلامية ، وعدم تنفير الناس من هذا الدين الجديد في بدايته ، ولذلك قرأنا عبارات : [فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني] وقوله ﷺ : « فرددت إليه أن هون على أمتي » وذلك في الحرف ، وفي الحرفين ، ومبدأ التخفيف تقرر لعدم طاقة الناس وقدرتهم على استيعاب الحرف الواحد ، حتى إلى ستة أحرف ، وقد روى مسلم ، عن أبي ابن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان عند أضواء بني غفار ^(١) ، قال : فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ ، فَقَالَ : « أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَطِيقُ ذَلِكَ » ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ ، فَقَالَ : « أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَطِيقُ ذَلِكَ » ، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ ، فَقَالَ : « أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَطِيقُ ذَلِكَ » ، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَأُوا عَلَيْهِ ، فَقَدْ أَصَابُوا » ^(٢) . ونماذج الذين لا

(١) وأضواء : هي بفتح الهمزة والضاد : مستنقع الماء كالغدير ، وهو موضع بالمدينة النبوية ، ينسب إلى

بني غفار ، لأنهم نزلوا عنده . فتح الباري ١٩ / ٣٣ .

(٢) صحيح مسلم ٦ / ١٠٣ ، ١٠٤ . وما بعدها .

يطبقون أن يقرؤوا القرآن على أقل من سبعة أحرف ، بينهم النبي ﷺ في الحديث المروي : لقي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ عِنْدَ أَحْجَارِ الْمِرَاءِ ، فَقَالَ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيَنَ ، مِنْهُمْ الْغُلَامُ ، وَالْخَادِمُ ، وَالشَّيْخُ الْفَانِي ، وَالْعَجُوزُ » ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : « فَلْيَقْرَأُوا الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ » ^(١) .

ويقول ابن الجوزي [ت ٥٩٧هـ] : « فأما سبب وروده على سبعة أحرف ، فالتخفيف على هذه الأمة ، وإرادة اليسر بها ، والتهوين عليها ، شرفاً لها وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها وإجابة لقصد نبينا أفضل الخلق وحبیب الحق ... وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، لغاتهم مختلفة ، وألسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها ، أو من حرف إلى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ، ولا بالتعليم والعلاج ، لا سيما الشيخ والمرأة ، ومن لم يقرأ كتاباً ، كما أشار إليه ﷺ فلو كلفوا العدول عن لغتهم ، والانتقال عن ألسنتهم ، لكن من التكليف بما لا يستطاع ، وما عسى أن يتكلف المتكلف ، وتأبى الطباع » ^(٢) .

ويرفض د/ إبراهيم أنيس [ت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م] جميع الآراء التي فسرت الحديث ، ويأبى إلا أن يفسره بالغاية والهدف منه ، فيقول : (ولست أدري سر هذا الاختلاف ، وتعدد الأوجه ، إلا أن نعزوه إلى اجتهاد المتقدمين ، ومحاولتهم التوفيق بينه وبين ما تواضعوا عليه في شأن القراءات ، ونحن لا نشك - الآن - في أن للحديث وجهاً واحداً يتفق والمنطق الإسلامي الذي

(١) مسند الإمام أحمد عن حذيفة ٥ / ٣٨٥ ، ٤٠٠ / دار صادر / بيروت ، ومسند الطيالسي عن أبي

١ / ٧٢ حديث رقم ٥٤٣ / دار المعرفة / بيروت ، وجامع البيان ١ / ١٢ .

(٢) النشر في القراءات العشر ١ / ٢٢ .

يتلخص في أن الدين الإسلامي قد دعا الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها إلى الإيمان به ، واتخاذة عقيدة لهم ، فلم يبعث النبي ﷺ لشعب - خاص - من الشعوب ، وإنما أرسل إلى الناس كافة ، هذا إلى أن الدين يسر لا عسر ، فقد اشتملت أحكامه وتعاليمه على كثير من الرخص حين يشق على الناس أمر من الأمور ، فنحن حين ننظر إلى هذا الحديث في ضوء الروح الإسلامي ، نرى أنه ليس إلا إحدى تلك الوسائل التي أريد بها التيسير على الناس ، ومنع المشقة عنهم ، فالمسلم أيًا كانت لهجة ، وأيًا كانت بيئته ، وأيًا كانت تلك الصفات الكلامية التي نشأ عليها وتعودها ، ولم يقدر إلا عليها ، يستطيع أن يقرأ القرآن بالقدر الذي تعودته عضلات صوته في نطقه ولهجته أو لغته ، ويجب ألا ننكر عليه ، أو أن نهزأ من قراءته ، فقد حاول بذلك الجهد ، فله أجر اجتهاده ، وجميع الروايات التي صاحبت قول هذا الحديث تؤيد ما نذهب إليه من أن النبي ﷺ لم يُرد به إلا أن يمنع الناس من القدح في قراءة غيرهم وإنكارها عليهم) ثم يعرض د/ أنيس لرأي ابن الجزري [ت ٨٣٣هـ] وابن قتيبة [ت ٢٧٦هـ] وكلامهم في مبدأ التخفيف ، ثم يقول : (والفرق بيننا وبين أصحاب هذا الرأي هو أنهم قصرُوا الأمر على لهجات العرب ، في حين أننا نجعله أعم وأشمل ، أي أن قصد التيسير والتسهيل يشمل جميع المسلمين على اختلاف ألسنتهم وأزمانهم : في الماضي والحاضر والمستقبل ، فليست تلك الحروف السبع التي أجزى قراءة القرآن بها مقصورة على اللهجات العربية ، بل تشمل جميع لهجات المسلمين في جميع بقاع الأرض ، فإذا قرأ الهندي المسلم القرآن - أمانا - ولاحظنا بعض الخلافات الصوتية في نطقه ، وجب ألا ننكر عليه قراءته ، فهي غاية جهده ، ولا يقدر على غيرها) ^(١) .

(١) في اللهجات العربية ٥٥ وما بعدها/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ط ٥ .

تعليق:

ونحن مع د/ أنيس في أن الهدف من الحديث التيسير والتسهيل ، لكننا لسنا معه في أمرين :

أ - تفسير الحديث بالهدف - فقط - لأنه كما ورد ﴿ فَأَقْرَأُوا ﴾ ﴿ مِنْهُ ﴾ [المزمل: ٢٠] ورد - أيضاً : «أنزل على سبعة أحرف» فلفظ (سبعة) يحتاج إلى تفسير ، وتوضيح وجلاء .

ب - ليست قراءة المسلمين اليوم أيّا كانت بيئاتهم ولغاتهم - تمثيلاً للأحرف السبعة ، بل هي جزء منها ، فالتمثيل غير مسلم به .

٢ - مصدر القراءات :

القراءات - على حد تفسير الأحرف بالقراءات - مصدرها الوحي وهذا واضح في الروايات المذكورة ، ففي الرواية الأولى ، نجد عبارة : «أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ» ، وفي الثانية ، نجد عبارة «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ» ، وفي الثالثة نجد عبارة «أُرْسِلَ إِلَيَّ» ، وجاء ذلك الأمر صريحاً جلياً في رواية مسلم : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ» وهذا يدل دلالة لا شك فيها ولا مرأى حولها ، أن القراءات مصدرها الوحي الذي نبعت منه ، إنما هو الوحي من عند الله - وهذا بخلاف ما ذهب إليه د . طه حسين [ت ١٩٣٧م] ، حيث قرر أن مصدر القراءات ليس الوحي ، وإنما هو اللهجات ، وهذا واضح في عبارته التي يقول فيها : [وهنا وقفة لا بد منها ، ذلك أن قوماً من رجال الدين فهموا أن هذه القراءات السبع متواترة عن النبي ﷺ نزل بها جبريل على قلبه ، فمنكرها كافر من غير شك ولا ريبة ، ولم يوفقوا الدليل يستدلون به على ما يقولون ، سوى ما روى في الصحيح من قوله ﷺ : «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ» والحق أن ليست هذه القراءات

السبع من الوحي في قليل ولا كثير ، وليس منكرها كافرًا ، ولا فاسقًا ، ولا مغمزًا في دينه ، وإنما هي قراءات مصدرها اللهجات واختلافها ، للناس أن يجادلوا فيها ، وأن ينكروا بعضها ويقبلوا بعضها»^(١) .

* وربما يفهم من كلام د/ طه أنه اعتمد على ما يلي :

أ- عدم توفيق العلماء واهتدائهم إلى الأحاديث التي يثبتون فيها أن القراءات وحي ، وترتب على ذلك عدم أحقيتهم في تكفير منكر القراءات .
ب- اختلاف القراء كثيرٌ .

* ويرد عليه بما يلي :

أ- كثرة طرق الحديث المختلفة والمتنوعة ، ولم تكن رواية واحدة مع أنها تكفي - والتي تثبت - بجانب التخفيف والتيسير - أنها وحي من عند الله ﷻ وليست القراءات السبع فقط ، بل يضاف إليها القراءات الشاذة يقول ابن الجزري : «والقطع بأنها منزلة من عند الله واجب»^(٢) . واشترط علماء القراءات شروطًا لقبول القراءة ، وهي : «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وصح سندها ، التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ووجب على الناس قبولها ، سواء أكانت عن الأئمة السبعة ، أم عن العشرة ، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين ، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة ، أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة ، سواء أكانت عن

(١) في الأدب الجاهلي ٩٥ / ط دار المعارف / ١٩٧٧ م .

(٢) النشر ١٣ / ١ .

السبعة أم عمن هو أكبر منهم ، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف»^(١) .

فانظر إلى اشتراطهم : صحة السند ، وهو الركن الأهم ، الذي عليه قبول القراءة : يقول ابن الجزري : «وأئمة القراء لا تحمل في شيء من حروف القرآن على الأفسى في اللغة والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر ، والأصح في النقل والرواية ، إذا ثبت عنهم لم يرد لها قياس عربية ، ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة ، يلزم قبولها ، والمصير إليها»^(٢) .

بـ أما الخلاف الذي يتخذه الدكتور ، فليس خلافاً يصل إلى حد الاتهام والإنكار ، وإنما هو كما يقول ابن الجزري : «الاختلاف المشار إليه في ذلك اختلاف تنوع وتغاير ، لا اختلاف تضاد وتناقض ، فإن هذا محال أن يكون في كلام الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

كما أن الخلاف بين القراء ليس إلا من قبيل الاختيار ، يقول ابن الجزري : «ونعتقد أن معنى إضافة كل حرف من حروف الاختلاف إلى من أضيف إليه من الصحابة وغيرهم ، إنما هو من حيث إنه كان أضبط له وأكثر قراءة وإقراء به ، وملازمة له ، وميلاً إليه ، لا غير ذلك ، وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة ورواتهم بالمراد بها أن ذلك القارئ ، وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة حسبما قرأ به ، فآثره على غيره ، وداوم

(١) السابق ٩ / ١ .

(٢) النشر ١٠ ، ١١ .

عليه ، ولزمه ، حتى اشتهر وعُرف به ، وقُصد فيه ، وأُخذ عنه ، فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء ، وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم ، لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد^(١) . لهذا وغيره لا يمكن أن تكون اللهجات مصدر القراءات لا الوحي - كما زعم ، اللهم إلا إذا قصد الدكتور أن اللهجات كانت سبباً في السعة والرحمة ، فتكون القراءات مظهرًا من مظاهر اختلاف اللهجات^(٢) . ولكن يبقى قوله : (والحق أن ليست هذه القراءات السبع من الوحي في قليل ولا كثير) وقد رد عليه .

٣ - اتحاد القبيلة واختلاف القراءة :

اختلاف عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم } وهما من قبيلة واحدة ، يقول ابن الجزري : (إن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم اختلفا في قراءة سورة الفرقان - كما ثبت في الصحيح - وكلاهما قرشيان من لغة واحدة وقبيلة واحدة)^(٣) .

* وسنذكر هذه الملاحظة - والتعليق عليه - فيما بعد .

٤ - آراء العلماء في الحديث :

الحديث لم يفسر المراد بالسبعة أحرف ، هل المقصود بها أصوات أو أحكام أو لهجات ، أو غير ذلك ؟ مما أدى إلى كثرة الآراء ، وتنوع الأقوال . وتعدد التفسيرات تجاه هذا الحديث .

(١) النشر ١ / ٥٢ .

(٢) في الأدب الجاهلي ٩٦ .

(٣) النشر ١ / ٢٤ .